

# تفسير القرآن الكريم

٤

سورة هود ١٥-١٢-١٤٠٣

دراسات الأستاذ:  
مهدي الهادي الطهراني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَٰنُ  
فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١)  
الْكِتَابِ أُنزِلَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ

أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَفِّرَ بِكُمْ مِنْهُ  
نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (١)

وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ  
يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ  
مُّسَمًّى وَ يُبَيِّنَ لَكُم نِزِيلَ فَضْلِهِ  
وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ  
عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣)

إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ  
شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤)

إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

• قيل في معنى قوله «إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ» قولان:

• **أحدهما** - إليه مصيركم باعادته إياكم للجزاء. و

• **الثاني** - إلى الله مرجعكم باعادته إلى مثل

الابتداء من انه لا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً

سواه تعالى،

• و المرجع المصير إلى مثل الحال الأولى.

إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ  
 • وقوله «وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» أخبار منه  
 تعالى انه يقدر على كل شيء إلا ما أخرجه  
 الدليل مما يستحيل أن يكون قادراً عليه من  
 مقدورات غيره و ما يقضى وقته من الأجناس  
 التي لا يصلح عليها البقاء.

إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ  
• قوله تعالى: «إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» في مقام التعليل لما يفيدُه قوله: «وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ» من المعاد، و ذيل الآية، مسوق لإزاحة ما يمكن أن يختلج في صدورهم من استبعاد البعث بعد عروض الموت،

إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

• والمعنى و إن تتولوا عن إخلاص العبادة له و رفض الشركاء فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير سيستقبلكم فتواجهونه و هو يوم البعث بعد الموت لأن مرجعكم إلى الله و الله على كل شىء قدير فلا يعجز عن إحيائكم بعد الإماتة فإياكم أن تستبعدوا ذلك.

إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ  
• فالآية قرينة على أن المراد باليوم الكبير يوم  
القيامة،

أَلَا إِنَّهُمْ يَبُئُونَ صُدُورَهُمْ لَيَسْتَخِفُّوْا  
 مِنْهُ أَلاَّ حِينَ يَسْتَعْسِفُونَ يَتَّيَّبُهُمْ  
 يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ  
 عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥)

أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ...

- روى عن ابن عباس انه قرأ «أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ» على وزن (يحلون) و أراد المبالغة و معنى (أَلَا) التنبيه، و ما بعده مبتدأ.

أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ...

• أخبر الله تعالى ان الكفار يثنون صدورهم. و قيل فى معناه ثلاثة اقوال:

• **أحدها** - قال الفراء و الزجاج: يثنونها على عداوة النبى صلى الله عليه و آله.

• و قال الحسن: يثنونها على ما هم عليه من الكفر.

أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ...

• و قال ابو على الجبائى. يثنى الكافر صدره على سبيل الانحناء، فى خطابه لكافر مثله ممن يختصه لئلا يعرف الله ما أضمرة.

• و قال ابو عبد الله بن شداد: ولى ظهره إذا رأى النبى صلى الله عليه و آله و غطى وجهه بالثوب

أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ...

- و اصل الثنى العطف تقول: **ثنيته** عن كذا أى **غطيته** و منه الاثنان لعطف أحدهما على الآخر فى المعنى، و منه الثناء لعطف المناقب فى المدح، و منه الاستثناء لأنه عطف عليه بالإخراج منه.

أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ...

• و قوله «لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ» فالاستخفاء طلب خفاء النفس  
تقول استخفي استخفاءً و تخفى تخفياً، و نظيره استغشى  
و تغشى قالت الخنساء:

• أرعى النجوم و ما كلفت رعيتها  
تغشى فضل اطمارى «١»

• (١) ديوانها ١٠٩ و اللسان (رعى) و أساس البلاغة

٣٥١

أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ... ٥٥

- و **الهاء** في **منه** يحتمل أن تكون عائدة الى **اسم الله** - في قول الحسن و مجاهد و الجبائي - جهلا منهم بأن الله لا يخفى عليه خافية.
- و قال ابو عبد الله بن شداد: هي عائدة على **النبى صلى الله عليه و آله**.

# أَلَا حِينَ يَسْتَعْشُونَ ثِيَابَهُمْ

• و قوله «أَلَا حِينَ يَسْتَعْشُونَ ثِيَابَهُمْ» معناه انهم كانوا يتعطون بثيابهم ثم يتفاوضون ما كانوا يدبرونه على النبي و على المؤمنين و يكتمونونه عن الناس، فبين الله تعالى انهم وقت ما يتغطون بثيابهم و يجعلونها غشاء فوقهم عالم بما يسرون و ما يعلنون، لا انه يتجدد له العلم في حال استغشائهم بالثوب بل هو عالم بذلك في الأزل.

ما يُسرونَ و ما يعلنون إنه عليهم بذات الصدور

• و معنى «ما يسرون و ما يعلنون» أى ما يخفونه فى أنفسهم و ما يعلنونه أى يظهرونه

• «إنه عليهم بذات الصدور» و معناه عالم بأسرار ذات الصدور.

أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ...

• قوله تعالى: «أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ»  
 إلى آخر الآية، ثنى الشيء يثناه ثنيا كفتح يفتح فتحاً  
 أى عطفه و طواه و رد بعضه على بعض قال فى  
 المجمع: أصل الثنى العطف تقول: ثنيتُه عن كذا أى  
 عطفته، و منه الاثنان لعطف أحدهما على الآخر فى  
 المعنى، و منه الثناء لعطف المناقب فى المدح، و منه  
 الاستثناء لأنه عطف عليه بالإخراج منه، انتهى.

أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ...

- و قال أيضا: الاستخفاء طلب خفاء الشيء يقال: استخفى و تخفى بمعنى، و كذلك استغشى و تغشى، انتهى.

أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ... ٥٥

- فالمراد بقوله: «يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ» أنهم يميلون بصدورهم إلى خلف ويطأطئون رءوسهم ليتخفوا من الكتاب أى من استماعه حين تلاوته و هو كناية عن استخفائهم من النبي ص و من حضر عنده حين تلاوة القرآن عليهم للتبليغ لئلا يروا هناك فتلزمهم الحجة.

أَلَا حِينَ يَسْتَعْشُونَ تِيَابَهُمْ يَعْلَمُ...

• و قوله: «أَلَا حِينَ يَسْتَعْشُونَ تِيَابَهُمْ يَعْلَمُ» إلخ، كأنهم كانوا يسترُونَ رءوسهم أيضا بثيابهم عند استخفائهم بثني الصدور فذكر الله سبحانه ذلك و أخبر أنه تعالى يعلم عند ذلك ما يسرون و ما يعلنون فما يغنيهم التخفي عن استماع القرآن و الله يعلم سرهم و علانيتهم.

أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ...

- و قيل: إن المراد باستغشائهم ثيابهم هو الاستغشاء في بيوتهم ليلا عند أخذ المضاجع للنوم، و هو أخفى ما يكون فيه الإنسان و أخلى أحواله،

أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ...

- و المعنى: أنهم يثنون صدورهم ليستخفوا من هذا الكتاب عند تلاوته عليهم، و الله يعلم سرهم و علانيتهم في أخفى ما يكونون عليه من الحال و هو حال تغشيتهم بثيابهم للنوم،
- و لا يخلو الوجه من ظهور.
- هذا ما يفيد السياق في معنى الآية،

أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ...

• و ربما ذكر لها معانٍ آخر بعيدة من السياق منها قولهم:  
 إن الضمير في لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ» راجع إليه تعالى أو إلى  
 النبي ص

• و منها قول بعضهم: «يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ» أي يطوونها على  
 الكفر،

• و قول آخرين: أي يطوونها على عداوة النبي ص إلى  
 غير ذلك من المعاني المذكورة و هي جميعا معان بعيدة.

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا  
 عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا  
 وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ  
 مُبِينٍ (٦)

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا

• أخبر الله تعالى أنه ليس في الأرض دابة إلا والله تعالى متكفل برزقها.

• و الدابة الحي الذي من شأنه أن يدب يقال: دب يدب ديباً و أدبه ادباباً، غير انه صار بالعرف عبارة عن الخيل و البراذين دون غيرها من الحيوان.

وَ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَ مُسْتَوْدَعَهَا

• و قوله «وَ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَ مُسْتَوْدَعَهَا» فالمستقر  
الموضع الذى يقر فيه الشيء و هو قراره و مكانه الذى  
ياوى اليه.

• و المستودع المعنى المجعل فى القرار كالولد فى البطن  
و النطفة التى فى الظهر

# و يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَ مُسْتَوْدَعَهَا

- و قيل: مستودعها مدفنها بعد موتها.
- و قيل: مستقرها في أصلاب الآباء و مستودعها في أرحام الأمهات.
- و قيل: مستقرها ما تستقر عليه، و مستودعها ما تصير اليه.

## كُلُّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ

- و قوله «كُلُّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ» خبر من الله تعالى أن جميع ذلك مكتوبٌ في كتاب ظاهر يعنى اللوح المحفوظ، و انما اثبت تعالى ذلك مع انه عالم انه لا يعزب عنه شيء لما فيه من اللطف للملائكة او يكون فيه لطف لمن يخبر بذلك.

وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ  
 فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ  
 لِيُظْهِرَ لَكُمْ أَحْسَنَ عَمَلًا وَ لئن قُلْتِ  
 أَنْتُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ  
 الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧)

# سِتَّةَ أَيَّامٍ

إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ

# سِتَّةَ أَيَّامٍ

إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُبَيِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ عِنْدِهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ

الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ  
وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ  
اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ  
فَسَأَلْ بِهِ خَيْرًا

# سِتَّةَ أَيَّامٍ

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ  
 وَ مَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى  
 عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ  
 وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ

وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ  
وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا  
مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿٣٨﴾

هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي  
**سِتَّةَ أَيَّامٍ** ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا  
 يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَ مَا  
 يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَ مَا يَعْرُجُ فِيهَا وَ هُوَ  
 مَعَكُمْ أَيَّنَ مَا كُنْتُمْ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ  
 ﴿٢٤﴾

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

• اخبر الله تعالى أنه خلق السماوات والأرض وأنشأهما في ستة أيام، وإنما خلقهما في هذا المقدار من الزمان مع قدرته أن يخلقهما في أقل من لمح البصر ليبين بذلك أن الأمور جارية في التدبير على منهاج، ولما علم في ذلك من مصالح الخلق من جهة اقتضاء أن ينشأها على ترتيب يدل على أنها كانت عن تدبير عالم بها قبل فعلها مثل سائر الأفعال المحكمة.

وَ كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ

- و قوله «وَ كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ» معناه انه خلق الخلق و دبر الامر ليظهر احسان المحسن، لأنه الغرض الذي يجرى بالفعل اليه. و في وقوف العرش على الماء، و الماء على غير قرار أعظم للاعتبار لمن أمعن النظر و استعمل الفكر.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

- والمراد بقوله «في ستة أيام» ما مقداره مقدار ستة أيام، لأنه لم يكن هناك أيام تعدد، لان اليوم عبارة عما بين طلوع الشمس و غروبها.

## لِيَبْلُوكُمْ

- و قوله «لِيَبْلُوكُمْ» معناه ليعاملكم معاملة المبتلى المختبر مظهرة في العدل لئلا يتوهم أنه يجازى العباد بحسب ما في المعلوم أنه يكون منهم قبل أن يفعلوه.

# عَسَىٰ أَن يَكُمُ أَحْسَنُ عَمَلًا

- و قوله «عَسَىٰ أَن يَكُمُ أَحْسَنُ عَمَلًا» فيه دلالة على أنه يكون فعل حسن أحسن من فعل حسن آخر لان لفظه أفعال حقيقتها ذلك. و لا يجوز ترك ذلك الا لدليل، و ليس هاهنا ما يوجب الانصراف عنه.

و لئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن  
 الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مَبِينٌ  
 • و قوله «و لئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن  
 الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مَبِينٌ» إعلَام من اللّٰه تعالى  
 لنبيه انه لو قال لهؤلاء الكفار ان اللّٰه يبعثكم بعد موتكم و  
 يجازيكم على أعمالكم لقالوا: ليس هذا القول الا سحر  
 ظاهر.

• و من قرأ (ساحر) أراد **ليس هذا** - يعنون النبي صلى الله  
 عليه و آله - **الا ساحر مبین**.

## أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا

- و قال الجبائي في الاية دلالة على انه كان قبل خلق السماوات و الأرض الملائكة قال: لان خلق العرش على الماء لا وجه لحسنه الا أن يكون فيه لطف لمكلف يمكنه الاستدلال به فلا بد اذاً من حي مكلف.

## عُشُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا

- و الأقوى ان يقال: انه لا يمتنع ان يتقدم خلق الله لذلك إذا كان في الاخبار بتقدمه مصلحة للمكلفين، و هو الذى اختاره الرمانى. و كان على بن الحسين الموسوى المعروف بالمرتضى (ره) ينصره.

## عَمَلًا أَحْسَنُ عَمَلًا

• و ظاهر الاية يقتضى ان العرش الذى تعبد الله الملائكة بحمله كان مخلوقاً قبل السموات و الأرض، و هو قول جميع المفسرين: كابن عباس و مجاهد و قتادة و البلخى و الجبائى و الرمانى و الفراء و الزجاج و غيرهم. و قال ابن عباس: كان العرش على الماء، و الماء على الهواء، و قال الجبائى: ثم نقل الله العرش الى فوق السموات

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

• قوله تعالى: «وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ» الكلام المستوفى في توصيف خلق السماوات والأرض على ما يظهر من كلامه تعالى و يفسره ما ورد في ذلك عن أهل العصمة ع موكول إلى ما سيأتي من تفسير سورة حم السجدة إن شاء الله تعالى.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

• و إجمال القول الذي يظهر به معنى قوله: «ستة أيام» و قوله: «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ» هو أن الظاهر أن ما يذكره تعالى من السماوات - بلفظ الجمع - و يقارنها بالأرض و يصف خلقها في ستة أيام طبقات من الخلق الجسماني المشهود تعلو أرضنا فكل ما علاك و أظلك فهو سماء على ما قيل و العلو و السفل من المعاني الإضافية.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

- فهي طبقات من الخلق الجسماني المشهود تعلو أرضنا و تحيط بها فإن الأرض كروية الشكل على ما يفيدته قوله تعالى: «يَغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا» الأعراف - ٥٤.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

- و السماء الأولى هي التي تزينه مصابيح النجوم و الكواكب فهي الطبقة التي تتضمنها أو هي فوقها و تزين بها كالسقف يترين بالقناديل و المشاكي

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

• و أما ما فوق السماء الدنيا فلم يرد في كلامه شيء من صفتها غير ما في قوله تعالى سبع سماوات طباقاً: «الملك: - ٣، و قوله: «ألم ترؤا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً و جعل القمر فيهن نورا و جعل الشمس سراجاً:» نوح: - ١٦ حيث يدل على مطابقتها بعضها بعضاً.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

• وقد ذكر الله سبحانه في صفة خلقها أنها كانت رتقاء ففتقها و متفرقة متلاشية فجمعها و ركمها و أنها كانت دخانا فصيرها سماوات، قال تعالى: «أَو لَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَ جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَ فَلَا يُؤْمِنُونَ:» الأنبياء: - ٣٠

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

• وَقَالَ «ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا:»  
حم السجدة - ١٢ فأفاد أن خلق السماوات إنما تم في

يومين،

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

- **و اليوم مقدار معتد به من الزمان** و ليس من الواجب أن يطابق اليوم في كل ظرف و وعاء يوم أرضنا الحاصل من دورة واحدة من حركتها الوضعية كما أن اليوم الواحد في القمر الذي لهذه الأرض يعدل تسعة و عشرين يوما و نصفا تقريبا من أيام الأرض و **استعمال اليوم في البرهه من الزمان شائع في الكلام.**

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

- فقد خلق الله سبحانه السماوات السبع في برهتين من الزمان كما قال في الأرض: «خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ - إِلَى أَنْ قَالَ - وَ قَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ:» حم السجدة: - ١٠ فأنبأ عن خلقها في يومين و هما عهدان و طوران و جعل الأوقات في أربعة أيام و هي الفصول الأربعة.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

• فالمتحصل من الآيات

- **أولاً:** أن خلق السماوات و الأرض على ما هي عليه اليوم من الصفة و الشكل **لم يكن عن عدم بحث** بل هي مسبوقة الوجود بمادة متشابهة مركومة مجتمعة ففصل بعض أجزائها عن بعض فجعلت أرضا في برهتين من الزمان و قد كانت السماء دخانا ففصلت و قضيت سبع سماوات في برهتين من الزمان.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

• **و ثانيا:** أن ما نراه من الأشياء الحية إنما جعلت من الماء فمادة الماء هي مادة الحياة.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

• و بما قدمنا يظهر معنى الآية التي نحن فيها فقوله: «هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام» المراد بخلقها جمع أجزائها و فصلها و فتقها من سائر ما يختلط بها من المادة المتشابهة المركومة، و قد تم أصل الخلق و الرتق في السماوات في يومين و في الأرض أيضا في يومين و يبقى من الستة الأيام يومان لغير ذلك.

# وَ كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ

• و أما قوله: «وَ كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ» فهو حال و المعنى و كان عرشه يوم خلقهن على الماء و كون العرش على الماء يومئذ كناية عن أن ملكه تعالى كان مستقرا يومئذ على هذا الماء الذى هو مادة الحياة فعرش الملك مظهر ملكه، و استقراره على محل هو استقرار ملكه عليه كما أن استواءه على العرش احتواءه على الملك و أخذه فى تدبيره.

وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ

- و قول بعضهم: إن المراد بالعرش البناء أخذاً من قوله تعالى: «مِمَّا يَعْرِشُونَ:» النحل: - ٦٨ أى بينون كلام بعيد عن الفهم.

## لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا

- قوله تعالى: «لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» اللام للغاية و البلاء الامتحان و الاختبار، و قوله: «أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» بيان للاختبار و الامتحان في صورة الاستفهام و المراد أنه تعالى خلق السماوات و الأرض على ما خلق لغاية امتحانكم و تمييز المحسنين من المسيئين.

# لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا

- و من المعلوم أن البلاء و الامتحان أمر مقصود لغيره و هو تمييز الجيد من الردي و الحسن من السيئ، و كذلك الحسنه و السيئه إنما يراد تمييزهما لأجل ما يترتب عليهما من الجزاء، و كذلك الجزاء إنما يراد لأجل ما فيه من إنجاز الوعد الحق

# لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا

• و لذلك نجده تعالى يذكر كل واحد من هذه الأمور المترتبة غاية للخلقة

• فقال في كون الابتلاء غاية للخلقة: «إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا:» الكهف: - ٧،

• و قال في معنى التمييز و التمحيص: «لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ:» الأنفال: - ٣٧،

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

• و قال في خصوص الجزاء: «و خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ لَتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ:» الجاثية: - ٢٢

• و قال في كون الإعادة لإنجاز الوعد: «كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ:» الأنبياء: - ١٠٤ إلى غير ذلك من الآيات،

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

• و قال في كون العبادة غرضاً في خلق الثقلين: «و ما خلقت الجن و الإنس إلا ليعبدون:» الذاريات: - ٥٦.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

• و عد العمل الصالح أو الإنسان المحسن غاية للخلقة لا ينافي اشتمال الخلقة على غايات أخرى بعد ما كان الإنسان أحد تلك الغايات حقيقة لأن الوحدة و الاتصال الحاكم على العالم يصحح كون كل واحد من أنواع الموجودات غاية للخلقة بما أنه محصول الارتباط و نتيجة الازدواج العام بين أجزائه فمن الجائز أن يخاطب كل نوع من أنواع الخليقة أنه المطلوب المقصود من خلق السماوات و الأرض بما أنها تؤدي إليه.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

• على أن الإنسان أكمل و أتقن المخلوقات الجسمانية من السماوات و الأرض و ما فيها صنعا و لئن نمت في جانب العلم و العمل نماء حسنا كان أفضل ذاتا مما سواه و أرفع مقاما و أعلى درجة من غيره و إن كان بعض الخليقة كالسمااء أشد منه خلقا كما ذكره الله تعالى و من المعلوم أن كمال الصنع هو المقصود منه إذا اشتمل على ناقص و لذا كنا نعد مراحل وجود الإنسان المختلفة من المنوية و الجنينية و الطفولية و غيرها مقدمة لوجود الإنسان السوي الكامل و

هكذا.

الميزان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٥٢

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

• و بهذا البيان يظهر أن أفضل أفراد الإنسان - إن كان فيهم من هو أفضل مطلقا - غاية لخلق السماوات و الأرض، و لفظ الآية أيضا لا يخلو عن إشارة أو دلالة على ذلك فإن قوله: «أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» يفيد أن القصد إلى تمييز من هو أحسن عملا من غيره سواء كان ذلك الغير محسنا أو مسيئا فمن كان عمله أحسن من سائر الأفراد سواء كانوا محسنين و أعمالهم دون عمله أو مسيئين كان تمييزه منهم هو الغرض المقصود من الخلقة،

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

- و بذلك يستصح ما ورد في الحديث القدسي من خطابه تعالى لنبيه ص: «لولاك لما خلقت الأفلاك» فإنه ص أفضل الخلق.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

• و في المجمع،: قال الجبائي: و في الآية دلالة على أنه كان قبل خلق السماوات و الأرض و الملائكة لأن خلق العرش على الماء لا وجه لحسنه إلا أن يكون فيه لطف لمكلف يمكنه الاستدلال به فلا بد حينئذ من حي مكلف،

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

- وقال علي بن عيسى: لا يمتنع أن يكون في الإخبار بذلك مصلحة للمكلفين فلا يجب ما قاله الجبائي وهو الذي اختاره المرتضى قدس الله روحه. انتهى.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

- أقول: و ما ذكره مبنى على ما ذهب إليه المعتزلة: أن أفعال الله سبحانه معللة بالأغراض و تابعة للمصالح و جهات الحسن و لو كان ذلك بأن يخلق خلقا ليخبر بذلك المكلفين فيعتبروا به و يؤمنوا له فيتم بذلك مصلحة من مصالحهم،

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

• وقد تقدم في أبحاثنا السابقة أن الله سبحانه لا يحكم عليه و لا يؤثر فيه غيره سواء كان ذلك الغير مصلحة أو أى شىء آخر مفروض و أن غيره أى شىء فرض مخلوق له مدبر بأمره إن كان أمرا ذا واقعية و وجود إن الحكم إلا لله و الله خالق كل شىء.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

- فجهات الحسن و المصلحة و هي التي تحكم علينا و تبعثنا نحو أفعالنا أمور خارجة عن أفعالنا مؤثرة فينا من جهة كوننا فاعلين نروم بها إلى سعادة الحياة، و أما هو سبحانه فإنه أجل من ذلك.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

- و ذلك أن جهات الحسن و المصلحة هذه إنما هي قوانين عامة مأخوذة من نظام الكون و الروابط الدائرة بين أجزاء الخلقة، و من الضروري أن الكون و ما فيه من النظام الجارى فعله سبحانه، و من الممتنع جدا أن يتقدم المفهوم المنتزع على ما انتزع منه من الفعل ثم يتخطاه و لا يقنع حتى يتقدم على فاعله الموجد له.

# لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا

• و أما ما في الآية من تعليل خلق السماوات و الأرض بقوله: «لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» و نظائره الكثيره في القرآن فإنما هو و أمثاله من قبيل التعليل بالفوائد المترتبة و المصالح المتفرعة و قد أخبر تعالى أن فعله لا يخلو من الحسن إذ قال: «الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ:» الم السجدة: - ٧، فهو سبحانه هو الخير لا شر فيه و هو الحسن لا قبح عنده و ما كان كذلك لم يصدر عنه شر و لا قبيح البته.

# لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا

- و ليس مقتضى ما تقدم أن يكون معنى الحسن هو ما صدر عنه تعالى أو الذى أمر به و إن استقبحة العقل، و معنى القبيح هو ما لا يصدر عنه أو الذى نهى عنه و إن استحسنة العقل و استصوبه فإن ذلك ياباه أمثال قوله تعالى: «قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ:» الأعراف: - ٢٨.

و لئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن

الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين

• قوله تعالى: «و لئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت

ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين» لما كان قوله:

«ليبلوكم» إلخ، يشير إلى المعاد أشار إلى ما كان يواجه

به الكفار ذكره ص للمعاد برميته بأنه سحر من القول.

و لئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن  
الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مَبِينٌ

• فظاهر الآية أنهم كما كانوا يسمون لفظ القرآن الكريم بما فيه من الفصاحة و بلاغة النظم سحرا، كذلك كانوا يسمون ما يخبر به القرآن أو النبي ص من حقائق المعارف التي لا يصدقه أحلامهم كالبعث بعد الموت سحرا، و على هذا فهو من مبالغتهم في الافتراء على كتاب الله و التعنت و العناد مع الحق الصريح حيث تعدوا عن رمى اللفظ لفصاحته و بلاغته بالسحر إلى رمى المعنى لصحته و استقامته بالسحر.

و لئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن  
الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مَبِينٌ

• و من الممكن أن يكون المراد بالسحر المغالطة و التمويه  
بإظهار الباطل في صورة الحق على نحو إطلاق الملزوم  
و إرادة اللازم لكن لا يلائمه ظاهر قوله تعالى في نظير  
المورد: «قل من بيده ملكوت كل شيء و هو يجبر و لا  
يجار عليه إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل فاني  
تسحرون:» المؤمنون: - ٨٩.

## خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

• «إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ» ..

• إن ربكم الذي يستحق الربوبية و العبادة هو هذا الخالق، الذي خلق السماوات و الأرض. خلقها في تقدير و حكمة و تدبير: «في ستة أيام». حسب ما اقتضت حكمته أن يتم تركيبها و تنسيقها و تهيئتها لما أراد الله.

# خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

- و لا ندخل في تحديد هذه الأيام الستة. فهي لم تذكر هنا لنتجه إلى تحديد مداها و نوعها. إنما ذكرت لبيان حكمة التقدير و التدبير في الخلق حسب مقتضيات الغاية من هذا الخلق، و تهيئته لبلوغ هذه الغاية ..

## خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

- و على أية حال فالأيام الستة غيب من غيب الله، الذى لا مصدر لإدراكه إلا هذا المصدر. فعلياً أن نقف عنده و لا نتعداه. و المقصود بذكرها هو الإشارة إلى حكمة التقدير و التدبير و النظام، الذى يسير به الكون من بدئه إلى منتهاه.
- «ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ» ..

# خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

- والاستواء على العرش. كناية عن مقام السيطرة العلوية الثابتة الراسخة، باللغة التي يفهمها البشر و يتمثلون بها المعاني، على طريقة القرآن في التصوير (كما فصلنا هذا في فصل التخيل الحسي و التجسيم من كتاب التصوير الفني في القرآن).

# خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

- و «ثم» هنا ليست للتراخي الزماني، إنما هي للبعد المعنوي. فالزمان في هذا المقام لا ظل له. و ليست هناك حالة و لا هيئة لم تكن لله - سبحانه - ثم كانت. فهو - سبحانه - منزه عن الحدوث و ما يتعلق به من الزمان و المكان.

# خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

- لذلك نجزم بأن «ثم» هنا للبعد المعنوي، و نحن آمنون من أننا لم نتجاوز المنطقه المأمونه التي يحق فيها للعقل البشرى أن يحكم و يجزم. لأننا نستند إلى قاعدة كلية في تنزيه الله سبحانه عن تعاقب الهيئات و الحالات، و عن مقتضيات الزمان و المكان.